

٣ - المسرح المصرى

لغته وما ذا تكون ؟

للأستاذ دريني خشبة



الذين يزعمون أن اللغة العربية هي لغة أجنبية عن هذه البلاد هم قوم متعصبون يتجشون على الحقيقة كما يتجشون على أنفسهم ، ويسبون إلى الحقيقة بقدر ما يسبون إلى بلادهم ... فلقد أثبتت اللغة العربية حيويتها وصلاحتها لسكان وادى النيل فلم يمض قرن أو قرنان بعد فتح العرب مصر حتى كان المصريون جميعاً ... بما فيهم سكان الأديرة والواحات ، يتكلمون اللغة العربية ويمجبون بطواغيتهم ، وقيامها بأغراض حياتهم قياماً كاملاً غير منقوص ، فأنسوا لغتهم الأصلية وآثروا عليها تلك اللغة اللينة السهلة التي مررت بها ألسنتهم في غير مشقة ، وأسلست لهم في غير عسر ... ولتكن أسباب انتشار العربية في مصر ما تكون ، فما لا جدال فيه أن المصريين لم يرغبوا على التكلم بها وأنهم لم يتعاطفهم أن يهجروا لغتهم إلى لغة الغزاة الفاتحين رغم ما في هذا الترك من صرامة على أنفسهم ، وبالرغم مما في تعلم لغة جديدة من عنّت وإرهاق

إن انتقال أمة بأكملها ، بل أهم كثيرة ، من لغة إلى لغة هو ضرب من السحر لا يفسره إلا امتياز اللغة الجديدة وتفرداها بفضائل ليست للغة القديمة . وإذا احتج أحد بالمعامل الديني لم يستطع تعليل إبقاء الملايين من مسلمى الهند والترك وغيرهم على لغاتهم ، ثم لم يستطع تعليل فناء اللغات القديمة في العربية التي جذبت إليها الأقليات الدينية فمروا كتبهم المقدسة وأغفلوا اللغات الأصلية التي كتبت بها مع ما يكونه لأصول هذه الكتب من إعزاز وتقديس

هذه مقدمة أوشكت أن نفرنا بكسر الكلام على اللغة العربية وصرف النظر عن المسرح ... على أننا نمود فتسأل : هل تصلح العربية أن تكون لغة للمسرح المصرى ... ولست أدري لماذا لا تسأل : هل تصلح اللغة العامية أن تكون لغة هذا المسرح ؟

أما السؤال الأول فله أعداء كثيرون حامت هداوتهم على

روح شعوبية منككرة ، كما قامت على كراهية اللغة العربية التي هم ضعفاء فيها أغلب الأمر ، والتي لا علم لهم بأسرارها ولا ذوق أصيل يغريهم بطلاتها وحلاوتها ، وكل أولئك الأعداء هم ممن شذوا لغة أجنبية فثقفوها وبرعوا فيها قبل أن يتاح لهم نصيب موفور من اللغة العربية . ومنشأ ذلك فساد نظام التعليم في مصر ... ذلك النظام الذى أوهى من دعائم قوميتنا - ورمزها الأول اللغة - كما أوهى من عمديتنا لكل ما هو مصرى ... فإن مصر توشك أن تكون الدولة الوحيدة - وربما يشبهها في ذلك الشام - التي تسمح لعدد ضخم من أبنائها ممن يتعلمون بالمدارس الأجنبية أن يتعلموا جميع المواد التي تدرس في هذه المعاهد بلغة غير لغة البلاد ... فالحساب والجغرافيا والتاريخ والعلوم والرسم والهندسة والأشغال وما إلى ذلك يدرس كله بلغة أجنبية وبواسطة معلمين من الأجانب ... وهكذا يفقد هذا العدد الجم من أبنائنا مصريتهم ، وينسون لغتهم ، لأنهم يذهبون إلى تلك المدارس وهم صغار لم يعدوا الرابعة أو الخامسة من عمرهم ، أى في السن التي يصلحون فيها للتكييف حسب تشاء المدرسة وعلى الصورة التي تهوى سياستها وسبب إنشائها ... ولقد آن أن نفهم أن الاستمرار في السماح لتلك المدارس بأن يظل منهاج الدراسة بها على هذا النحو هو أشنع ضرب من ضروب الخيانة الوطنية . ولا يقل عنه سماحنا لأبنائنا بالذهاب إلى تلك المدارس ... وهو هذا الجزء البغيض من تلك الخيانة الذى نصنعه بأيدينا . على أن الآباء الذين يدفعون بأبنائهم إلى تلك المدارس يدفعون اعتراض كل معترض بحجج لها وجاهتها أحياناً ... ولست أرى ما ذا يمنع وزارة المعارف من تدرك أوجه النقص التي تعتور نظام التعليم في مدارسها حتى لا تنهض لأولئك الآباء حجة في العدول بأبنائهم عن مدارسها ؟ على أن التفات المدارس الأجنبية إلى تعليم البنات وتطعيمهن على الطابع الأجنبي كان خليقاً أن يفتح أعين وزارة المعارف فتقاومه بفتح المدارس المصرية الراقية في كل مدينة بها مدرسة أجنبية تنشأها الفتاة المصرية التي لا تجد مدرسة أخرى في بلدتها لتتعلم بها ... والحق أنه لم يعد معنى مطلقاً أن توجه الدولة ٩٥ ٪ من اهتمامها إلى تعليم الذكور ، ولا توجه إلى ما تبقى من تلك النسبة المثوية الثقافية لتعليم الإناث . وسنظل بقراء في قوميتنا ، مدخولين في مصريتنا ، بأنسين في لغتنا ، ما دامت الدولة تقصر هذا التقصير الشنيع

العربية أكرم مقوماتها ... ونحن نلاحظ أن الطبقات المتعلمة في مصر وفي الشرق العربي عامة ، أقل استعمالاً للدرجات الدارجة من سائر طبقات الشعب غير المتعلمة ... فعظم طبقات المتعلمين في مصر وفي الشام وفي العراق يداولون أحاديثهم بينهم باللغة العربية ، أو ما يقرب أن تكون لغة عربية خالصة ، اللهم إلا ما تقضى به العادة من استعمال العامية في مجرى الحديث في غير وعي ... فالتعليم إذن هو الوسيلة الوحيدة لإحلال العربية الفصحى محل العامية الدارجة ... أما هاتينتا بتعليم الفتاة خاصة فذلك أنها هي التي تتولى تربية أطفالنا في سنهم الأولى ، فهي كفيلة إذن أن تصقل ألسنتهم ، وأن تفهم عن المدرسة ما تهدف إليه من مطامح وأغراض ، فهي على مساعدتها أقدر من الأم الجاهلة المفرقة في الأمية ، ومن الأم التي تعلمت في مدرسة مصرية عرجاء ، أو في مدرسة أجنبية تعنى أول ما تعنى بمحاربة القومية المصرية في كل مشخصاتها وأهم تلك الشخصيات اللغة التي لا تستحي بعض طبقاتنا الراقية ممن تعلموا - أو تعلمن - في مدارس أجنبية من هجرها واحتقارها ومداولة الحديث بلغة أجنبية حيث لا يكون في المجلس أجنبي واحد ... هذه كارثة اجتماعية ينبغي أن تعالجها الدولة بما يجب لها من جهد ... وليس على الأرض قاطبة لغة أشرف من لغتنا لو وجدت من يخدمها في إخلاص ونصح ...

والى أن يتم هذا الإصلاح ، وإلى أن تلتفت الدولة إلى خدمة اللغة العربية على النحو الذي تراه ، لا نرى مندوحة من الصراحة في القول ونحذر نتحدث عن لغة المسرح المصري وما ينبغي لها أن تكون في الوقت الحاضر ، من أن نوصي باللغة العامية خيراً في هذا الحديث ... فللغة العامية محاسنها التي لا تنكر ، ومن هذه المحاسن ما تتفرد به ، وما لا يؤديه شيء في العربية الفصحى إلا حيناً تفشو ، هذه العربية الفصحى ، بين الناس بحيث تختلط بدماهم وألسنتهم كما تختلط العامية الآن ... وليس الخير الذي نريد أن نوصي به للغة العامية هو الخير المطلق الذي يجعلها لغة المسرح عندنا ... كلا ... وإلا كنا ندعو إلى شر لا إلى خير ، وإلى نكسة لا إلى نهضة ، فليست لغة غير اللغة العربية تصلح للمسرح المصري خصوصاً في الروايات المترجمة التي كان يقبل الجمهور عليها إقبالاً شديداً في فجر نهضتنا المسرحية التي كان يضطلع بها الشيخ سلامة حجازي وجورج أبيض وعبد الرحمن

في تعليم الفتاة المصرية ، صادفة معظم عنايتها إلى تعليم الذكور دون الإناث ، مع علمها بأن البنت هي التي تصنع الأمة ، وأن نصيبها في ذلك هو أضماض نصيب الذكر .

ونحن إنما نسوق هذا الكلام في معرض الحديث عن لغة المسرح لما له من الصلة الوثيقة به ... لأننا نتكلم باللغة العامية ونعامل بها في حين أننا نقرأ الكتب والصحف ونصنع إلى الراديو والخطب الضافية في المساجد والكنائس ، والمحاضرات الضافية في النوادي ودور العلم ... ثم نحن نكتب في مدارسنا وفي معاملاتنا ومراسلاتنا باللغة العربية الفصحى ، أو ما يقرب من اللغة العربية الفصحى ... وفي مصر اليوم أكثر من ثلثانة جريدة ومجلة تصدر يومياً أو أسبوعياً أو كل شهر وكلها مديجة بهذه اللغة العربية الفصحى ... ومن هذه الجرائد ما كان يصدر يومياً في ست عشرة صفحة وفي ثمان وأربعين صفحة محررة باللغة العربية الفصحى ونادر ما كان يعثر القارى فيها جميعاً بقلطة في اللغة ... ومن مجلاتنا عدد لا بأس به يعنى بالأسلوب فلا يسمح بركاكة أو لحن أو إسفاف أو دنس من العامية حتى في أبسط ألفاظها ... فهل قال أحد إن أى مستمع من عامة الشعب ممن لا يتكلمون العربية الفصحى ومن لا يخطر لهم استعمالها على بال ، لا يفهم ما يصفى إليه من موضوعات تلك المجلات وتلك الصحف وما يستمع إليه في خطب المساجد وعظات الكنائس ومحاضرات الوعاظ العامة وإرشادات الإذاعة وأغانيتها المنظومة بالعربية من قصائد وموشحات ؟

الحق أن عامة المصريين ، بل عامة الأمم العربية ، تجيد فهم الأساليب العربية وتسميها ... ولولم تكن هذه العادة متعلمة ، ولولم يكن لها بصير بطبيعية تراكيب تلك الأساليب ... وما دامت هذه العامة تفهم تلك الأساليب ولا تضيق بها ، بل هي تلتذذها أحياناً وتردها في أغاني كبار المطربين وفي أحاديث الرسول الكريم التي تحفظها عن ظهر قلب ، وفي آيات القرآن التي ترددها وتمزجها حياتها في صلواتها وأدعيتها ، وفي آيات الكتب المقدسة الأخرى ... فليس من المسير أن تحاول الدولة التمهيد لإحلال العربية الفصحى محل هذه الدرجات الدارجة المتعددة ، وذلك بتعليم الفتاة المصرية وتنشئها في بيئة مدرسية عربية لا يؤذن فيها بتعلم لغة أجنبية حتى تبلغ الفتاة الثانية عشرة على الأقل ، وحتى تكون قد أنضجت فيها قوميتها المصرية التي نعتبر اللغة

وعن نكافا القومية التي لا يعقل أن ترسل بغير اللغة العامية ؟
 وهل نستطيع الاستغناء عن الفوكلور المصرى كله طرفة
 من غير أن نمنح أنفسنا مهلة ليكون لنا فوكلور آخر لا غنى
 لحياتنا الأهلية عنه ، إلى أن نستعرب تمام الاستعراب ؟
 ... ولنسأل أنفسنا هذا السؤال أيضاً :

هل فى أوروبا أمة استغنت تمام الاستغناء عن لغتها الدارجة
 فى مسرحها المحلى ؟

وأحسب أن الإجابة هى بالنفى القاطع عن كل الأسئلة الأولى ،
 ولعل السؤال الأخير فقط هو الذى يحتاج لإيضاح ...

ولا سرا فى أن جورج برنارد شو هو أعظم مسرحى عرفه
 العالم فى العصر الحديث ، وأكثر النقاد على أنه من أعظم
 مسرحى التاريخ ، ثم هو رجل تدين له اللغة الإنجليزية بفضل
 كبير . وهو فى الوقت نفسه من أكبر كتابها حيث لا ينازعه
 المرتبة الأولى إلا واحد أو اثنان من أساطين كتابها ... وقد
 استطاع شو أن يجعل للغة الإنجليزية الفصحى معيناً لا ينضب
 من اللغة العامية ، وهو يعتبر هذه اللغة ضرورة لا غنى عنها
 للسكالك المسرحى خصوصاً لشخصيات الرعاع والفوغاء التى يصرح
 أنه إن أنطقها بالإنجليزية الفصحى التى لا تعرفها ولم يسبق لها
 أن لهجت بها فإنه يجافى الواقع وينافى الطبع ويقلق الذوق
 المسرحى ، ولذلك تراه فى عديد كبير من رواياته ، خصوصاً
 فى ملاحيه المرحه ، يرسل حديث أحد أبطاله الرئيسيين بالعامية
 من أول الرواية إلى آخرها ، كما فى ملهاته كانديد Candida^(١)
 حيث لا يتكلم برجس Burgers إلا بالعامية ؛ وكما فى روايته :
 Captain Brassbound Conversion^(٢) (هداية الكبتن
 براسبوند) ، حيث لا يتكلم البطل درنكووتر Drinkwater
 إلا بالعامية كذلك . ولو أردنا ضرب الأمثال من روايات كتاب
 آخرين يرتفعون إلى مستوى شولما أعوزنا ذلك . على أن الكاتب
 الإنجليزى سوفيت كان أول من تولاه القلق على ضياع العامية

رشدى والشيخ أحمد الشامى وأحمد سماعة ، والتي ازدهرت أيما
 ازدهار فى السنوات الأولى من حياة مسرح رمسيس قبل
 الانشقاق المشؤم الذى مرق وحدة الممثلين المصريين البارزين
 والذي انتهى إلى تلك العواقب المحزنة التى لم يسلم منها إلى اليوم .
 ولا يفوتنا أن نذكر الفرقة القومية بهذه المناسبة ... فلقد كانت
 اللغة العربية هى لغتها الرسمية ، وكان يرجى الخير كل الخير من
 هذه الفرقة العتيقة التى قضت عليها سياسة قصر النظر ... تلك
 السياسة المرتجلة التى كانت تريد أن تجعل من هذه الفرقة مشروعاً
 تجارياً فلم تعرف لها حقها الثقافى ، ولم تعرف لأبطالها مقدراتهم
 على الاضطلاع بالنهضة المسرحية وحسن استعدادهم لأداء مهمتهم
 فضربت بهم عرض الأفق ، وقبضت عنهم كفها ؛ مما نرجو
 أن نمرض له عند الكلام عن فرقنا التمثيلية ... ونأمل ألا يفضب
 كلامنا هذا أحداً من أبطال التمثيل فى مصر ، وألا يترك ثنائونا
 على زيد غضاضة فى نفس عمرو ... فقد آن أن يكون عمل الجميع
 خالصاً لخير المسرح

وقصار النظرهم الذين يزعمون أن نمسك الميمين على الفرقة
 القومية باللغة العربية هو الذى قضى عليها ... بل قضت عليها
 عوامل أخرى سنعرض لها فى حينها إن شاء الله ... فاللغة
 العربية يجب أن تكون اللغة السائدة فى جميع الروايات المترجمة .
 أما الروايات المصرية فمسألة فيها نظر ...

وإليك أيها القارىء بعض الأسئلة التى تتبادر إلى ذهنى
 وذهنك بهذه المناسبة :

هل يجوز أن يدير المعلم (فلان) الجزار أو البواب أو الخادم
 أو بائع المقائق (السجق ولا مؤاخذه) حديثه باللغة العربية
 فى زماننا الذى نحن فيه ؟

وهل نستطيع أن نخلق جواً كوميدياً (هنلياً) باللغة
 العربية الفصحى دون أن تنتهى جهودنا إلى العثانة والسخف ؟
 وهل نستطيع الاستغناء فى جميع رواياتنا الكوميدية عن
 لهجاتنا المضحكة المرحه من (صعيدى وشرقاوى وبربرى وشامى
 ومغربى ؟)

وهل نستطيع الاستغناء عن أمثالنا العامية الفياضة بالحكمة

(١) مجموعة ال Pleasant Plays

(٢) مجموعة ال Four Plays for Puritans